السكر بالمسكال

لماذا يسكر الناس . لماذا يخدّرون اعصابهم وادمغتهم . أليجرّد انفاق المال . ام للتشبُّه بالمجاوات . كلاَّ لا لهذا ولا لذاك بل لانهم يجدون في المخدرات والمسكرات شيئاً من الراحة بعد التعب والسكون بعد الاضطراب . لكن الراحة تنال بغير هذه السموم والسكون يجيء من نفسه اذا انقطع الانسان عن الاعتمال والاشتغال لان الدم يمرُّ على دقائق الدماغ وينزح منها الفضول ويودع فيها الغذاء فاذا كانت ساكنة قليلة الاشتغال عادت اليها الراحة بعد التعب ودبَّ فيها النشاط بعد الخمول . ولو عرف جميع الناس هذه الحقيقة ومُنعوا عن المسكرات والمخدرات منذ الدهر لشبُّوا وهم في غنًى عنها سواء كانوا من اهل الفاقة او من اهل اليسار . وبديهيٌّ ان كثيرين منهم يجهلونها او يتجاهلونها في كل درجات الحضارة من الصعيد سكان الخرائب والكهوف الى اكابر العلماء والفلاسفة ولذلك شاعت المسكرات في المسكونة كلها وتعدَّدت انواع المخدِّرات والفها الجمُّ الغفير من الناس ولم تهتمّ الحكومات بمنعها لانها وجدت فيها موردًا للدخل غزيرًا

وكنا نحسب ان العالم الجديد قد اكتفى بتقديم التبغ فناظر به المسكرات على انواعها والحشيش والافيون والتنبول وهي من مبتكرات العالم القديم واذا بمجازن الهنود الاميركيين مملوءة بمخدرات اخرى اقواها المسكال الذي فيه كلامنا الآن وقد بالغ في مدحه بعضهم فسماهُ فردوس العالم وهو اوراق نباتية من نبات كالصبير يُجمع وتصنع منهُ اقراص صغيرة يمضغها هنود اميركا فتسكرهم سكرًا وقتيًّا يرون فيه مناظر بديعة حتى اذا زالت منهم سورتهُ عادوا الى اعمالهم على جاري عادتهم . وهم يجتمعون لمضغهِ مرةً في الاسبوع فيضرمون نارًا يوم السبت مساء يجلسون حولها ويقوم رئيسهم فيعطي كلا منهم اربعة اقراص فيمضغونها ويبتامونها ويكرِّر ذلك ثلاثًا او اربعًا من مغيب الشمس الى الفجر وهم جلوس حول النار يرون صورًا وخيالات بديعة التزاويق والتزاويل والمغنون يغنون والمطبِّلون يطبلون حتى اذا كانت الظهيرة في اليوم التالي آب اليهم نشاطهم وعادوا الى اعمالهم على جاري عادتهم

وهم يعبدون نبات الصبير الذي يصنع منهُ المسكال فيدنون منهُ حامري الرؤوس ويقتلعونهُ بالوقار التام لئلاَّ يتألَّم وقت اقتلاعهِ . والذين تنصَّروا منهم لا يزالون ينظرون اليهِ نظر العابد الى المعبود

ومنذ بضع سنوات أُتي بالمسكال الى وشنطون عاصمة اميركا وامتُحن في بعض الشبان وعُرف فعلهُ وامتحنهُ الدكتور ويرمتشل في نفسهِ ثم امتحنهُ المستر هملوك البس وهاك ما كتبهُ في هذا الشأن قال

تنعت ثلاثة اقراص وشربت تقاعتها بين الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين والساعة الرابعة والدقيقة الثلاثين بعد الظهر فشعرت اولاً بنشاط جدّ، وعقلاً ثمّ تولاني الخمول حتى كاد يغمى عليّ وضعف نبضي فاضطررت ان استلقي على جنبي وبقيت استطيع القراءة وكنت ارى امامي خيالاً بنفسجي اللون وانظر الى يديّ فاراهما وارمتين كأنهما تكادان تنفزران واذا اغمضتُ عينيّ رأيت صوراً بهية الالوان ولم أكن اراها دفعةً واحدة بل كانت تتدرّج تدرّجاً من الغموض الى الظهور حتى اتضحت تمام الاتضاح في المساء ولكنها كانت مما يفوق الوصف كأنها حلّي من الذهب الوهّاج مرصعة بالزمرد والياقوت. وشممت الهواء رائحة طيبة كأنهُ كان عابقاً بالطيب ثم زال ما كنت اشعر بهِ من الاضطراب ولم يبقَ الاّ قليل من الارتجاف في يديّ حتى كان يصعب عليّ الكتابة ولو بقلم الرصاص. ولم تكن الصور مما اعتدت مشاهدتهُ بل كانت كلها غريبةً وكأنها كانت تقترب مني دواماً ولكنها لا تصل اليّ ولا تتخذ صورة اعرفها. مثال ذلك اني كنت ارى الارض مفروشة بالجواهر فرادى وجماعات بعضها برّاق متألق وبعضها لامع وهّاج ثم اراها تنتظم بعضها مع بعض في شكل ازهار او فراش او حشرات مختلفة الالوان وقد ارى انا كبيراً مجوفاً مصنوعاً من عرق اللؤلؤ المتغيّر الالوان كعنق الحمام. واذهلتني كثرة الصور وتنوّع اشكالها فانها كانت تتغير امامي دواماً شكلاً واشراقاً وكانت الوانها تدكن مرّة وتشرق اخرى وشعرت حيناً كأن السماء تمطر ذهباً برّاقاً. وكثيراً ما كانت الوان الصور رزينة وفيها نقط مشرقة متألقة. وما من لون الاّ ورأيتهُ يظهر امامي على درجاتهِ المختلفة فالاحمر كان يتدرج من القرمزي الى الوردي فالقرنفلي. وقد تظهر هذه الالوان كلها معاً او يتلو بعضها بعضاً ولها كلها اشكال محدودة جميلة بهيجة كأنها منسوجة نسجاً من خيوط دقيقة لماعة تكاد تكون شفافة كأنها اعجمة الفراش مرصعة بالحجارة الكريمة. وقد تمثلت تلك الصور امامي مرةً بشكل الخزف الصيني ومرةً اخرى باشكال الحلواء وكانت كأنها ملقاةً على خشب منقوش مخروط مثل اشغال المشربية المصرية وكثيراً ما كان الشكل الواحد يتكرّر في اجزاء كثيرة من الصورة لكن الوانهُ تكون مختلفة

وكان الدكتور وبرمشل لا يرى الصور الاّ وهو مغمض العينين في غرفة مظلمة تماماً اما انا فكنت اراها وعيناي مفتوحتان ولكن الوانها لا تكون بهية حينئذٍ. واجمل الصور ما كنت اراهُ وانا مغمض العينين في غرفة منارة بالنار. وهذا يؤيد ما يفعلهُ الهنود الذين يضرمون النار ويجلسون حولها. وبعد مضي بضع ساعات ضعفت قواي فقمت وخلعت ثيابي واتكأت في سريري ولم أكن اشعر بالنعاس وكانت مشاعري كلها متنبهة متهيجة فكنت اسمع الصوت

اللطيف فيعظم في لذتي جداً . واخيراً تعبت من مناظر الصور فاشعلت الغاز والحال رأيت امواجاً من النور تنتشر منهُ وتتعاظم جداً وكنت ارى في الظلال بروناً حمراء وخضراء وبنفسجية وتتغير لون الغرفة فصرت اراها كأنها صورة في ورقة لا كأنها غرفة حقيقية

وعند الساعة الثالثة والدقيقة الثلاثين بعد نصف الليل شعرت ان فعل المسكال قد ضعف لكن الصور بقيت تتراءى امامي وكانت قد تشكلت باجسام بشرية لابسة ثياباً صينية وقمت حينئذٍ نوماً هادئاً ولم احلم ثم استيقظت في الصباح وانا لا اشعر بشيء غير عادي

ثم خطر لي ان اجرب فعل المسكال وانا اسمع الاصوات الموسيقية لأرى ما تأثيرها في الهنود فشربت نقاعتهُ وجلست في غرفة منارة بالنار وجلس واحد يلعب على البيانو بجانبي فزادت رؤيتي للصور وبهجتي بها ولا سيما اذا كانت الموسيقى على منهج واحد واما اذا تغير منهجها قلَّ اشراق الصور كأن سحابة وقفت بينها وبيني . وكانت الصور تختلف باختلاف الالحان فاللحن المعروف بشهرزاد اراني حلة بيضاء طائرة فيها جواهر برَّاقة . واللحن المعروف بالظائر المتنبي اراني جوّاً مشرقاً فيهِ اشكال كالطيور ذاهبة فيهِ كل مذهب . وكنت ارى هذه الصور واصفها قبلما اعلم اسم اللحن

واستطرد المستر الس الى وصف المسكال ومقابلتهِ بغيرهِ من المسكرات والمخدرات ففضلهُ على الحشيش والكحول من كل وجه وقال ان فعلهُ لا يظهر على المرء الاَّ في ذوي العقول السليمة الاعضاء الابدان واشدُّهُ في اسمى القوى العقلية وشاربهُ لا يذهب منهُ رشدهُ ولا يشعر كأنهُ انتقل من هذا العالم بل يرى العالم حولهُ قد تغير فلبس حلة جميلة بديعة كأنهُ فردوس النعيم وجعل عنوان مقالتهِ التي وصف فيها هذه التجارب ونحوها "الفردوس الصناعي" . ويظهر من سياق كلامهِ انهُ يودُّ ترغيب الناس في استعمال المسكال لانهُ نافع غير ضار

ودعوى المستر الس هذه مثل دعوى الذين وصفوا الحشيش في اول استعمالهِ فقد ذكر المقريزي ان شيخاً من الفقراء اسمهُ حيدر اكتشف هذا النبات اتفاقاً واكل من اوراقهِ فحصل لهُ نشاط وسرور واخبر اصحابهُ بهِ فاخذوا من اوراقهِ واكلوا فحصل لهم من السرور والطرب ما عجزوا عن كتمانهِ فامرهم بصيانة هذا السر الاَّ عن الفقراء وقال لهم ان الله خصكم بهِ ليذهب همومكم الكثيفة ويجلو افكاركم وامرهم بزرعهِ حول ضريحهِ بعد وفاتهِ وتوفي سنة ٦١٨ للهجرة وكان قد اوصى اصحابهُ ان يوقفوا ظرفاء اهل خراسان وكبراءهم على هذا العقار فاعلموهم بسرهِ فاستعملوهُ وشاع امر الحشيش في بلاد خراسان وفارس ثم حمل الى العراق والشام ومصر . وذكر ابياتاً في وصفهِ لمحمد ابن الاعمى الدمشقي يقول فيها

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر ... معتبرة خضراء مثل الزبرجد
وكف اكف الهم بالكف واسترح ... ولا تطرح يوم السرور الى غد

وابياتاً اخرى لعلي بن الشاعر يقول فيها

ألا فاكفف الاحزان عني مع الضر ... بعذراء زفت في ملاحفها الخضر
تجلت لنا لما تحلت بسندس ... فجلت عن التشبيه في النظم والنثر
عروس يسر النفس مكنون سرها ... وتصبح في كل الحواس اذا تسري
فللذوق منها مطعم الشهد رائقاً ... وللشم منها فائق المسك بالنشر
علت رتبة في حسنها وكأنها ... زبرجد روض جاده وابل القطر
تبدت فابدت ما اجن من الهوى ... وجاءت فولت جند همي والفكر
جميلة اوصاف جليلة رتبة ... تعالت فتعالى في مدائحها شعري
فقم فانف جيش الهم واكفف يد العنا ... بهندية امضى من البيض والسمر
تزيل لهيب الهم عنا باكلها ... وتهدي لنا الافراح في السر والجهر

هذا ما قاله الشعراء في وصف الحشيش وهو من مذهبات العقل ومضعفات الحواس ومن شر الآفات على كل بلاد مني به . ولا شبهة عندنا في ان المسكال يكون مثله اذا شاع شيوعه . وقد استدرك المستر الس على ما قاله اولاً في مدحه فقال "ان ما نعلمه من فعل المسكال بالمتمدنين قليل لا يكفي لان يبنى عليه حكم ولاسيما من حيث فعله اذا أدمن استعماله ولا شبهة عندي في ان الاكثار منه مضر جداً". لكنه عاد فسوغ استعماله الاعتماد ولو مرة او مرتين وقال انهم يجدون فيه لذة لا يشوبها. وما ادراه ان من يستعمله مرة لا يستعمله مراراً ثم يعكف عليه فيترك العمل ويعيش في الاحلام. ولو كان لهذا العقار فائدة حقيقية لظهرت في هنود اميركا وساعدتهم على الارتقاء من حالة الهمجية التي نشأوا فيها والواقع انهم يزيدون انحطاطاً عاماً بعد عام بمقدار ما يزيد نزلاء بلادهم ارتقاء ولعل المسكال هذا سبب من الاسباب الكثيرة التي اوقفتهم عن الارتقاء ودعتهم الى الانحطاط

هذا ونعيد ما اشرنا اليه آنفاً وهو ان التعب عرض طارئ على اعصاب الجسم ودقائقه تجتمع الفضول فيها فاذا انقطع الانسان عن الشغل والعمل واخلد الى السكينة فالدم الجاري في بدنه ودماغه يذهب بالفضول ويجلو صدأ الهموم حقيقة ومجازاً . وهذه هي الراحة الحقيقية المكتسبة من غير ضرر ولا اسراف وكل ما سواها من قبيل مداواة الداء بالداء